

مكتبة الشباب

حكايات تحدث غداً

تأليف

محمد التواب يوسف

رسوم

إسماعيل صبري

الطبعة الأولى

١٤٢٨هـ / ٢٠٠٧م

حقوق الطبع محفوظة

رقم الإيداع : ١٤٨٧٤ / ٢٠٠٧

التوزيع الدولي : 3- 524-361-977

سفير الدولية للنشر

١٦ في محمد عز العرب من في القصر العيني - ص.ب : ٤٩٥ الدقي - القاهرة

ت : ٢٥٣٩٩٥٠٥ - ٢٠٩ - فاكس : ٩٥٣٢٩٩٠٢ - ٩٠٢

Web Site: www.safcer.com.eg E-Mail: info@safcer.com

المعرض الدائم

٤٨ في أحمد عرابي الهندسة

تليفون : ٣٣٠٤٩٤٠٣ / ٩٠٢

مقدمة

كنا نهمك ونبدأ بقولنا ..

- كان يا ما كان ..

أى أن كل ما نحكيه حدث ووقع فى الماضى ..

وكنا نختم حكاياتنا بنهاية سعيدة ..

- وتزوج الفتى بالفتاة، وأقيمت الأفراح واللبالى الملاح، وعاشا فى

تبات ونبات وخلفا الصبيان والبنات ...

حكاياتنا هنا مختلفة .. ستكون بدايتها ..

- سوف تأتى زمان، تقع فيه أحداث حكايتنا .. وسنذهب معاً إلى

المستقبل.

وغالباً لن يكون هناك ختام تام .. فما من فتى وفتاة يتزوجان

وينجيان؛ لأن النهاية ستكون مفتوحة .. نعم ، هى مفتوحة على

مصراعيها ، تنتظر الجديد من جهود العلماء والعلم .

النكتة التي ستصبح علماً !

روى لى مصرى ، يعيش فى كندا فكاهة ، ظل على مدى عشرين عاماً يذكرها ، فقد حدثت مع جدته ، وكانت فى زيارة لطبيب ، قال لها وهو يشير إلى تذكرة الدواء ، أى الروشتة :

- هذا الدواء - للمفاصل ، وهذا سيريح معدتك ، وهذه النقطة للأنف ، وهذه تحتاجين إليها لوجع رأسك والصداع ..
سألته الجدة ، وهى جادة تماماً :

- وكل دواء يعرف طريقه إلى مكان المرض ؟

انفجر الطبيب ضاحكاً ، وهو يطمئنها إلى أنها سوف تكون بخير ، إن شاء الله .. الدم سيحمل العلاج للمكان المصاب.

ضحكت للنكتة ، وفيما بينى وبين نفسى تساءلت :

- لماذا ظل صاحبها يذكرها ، ولا ينساها ؟ !

بل وأضاف ..

- الغريب أن هذه أول مرة أحكيها منذ حدثت .

ويذهلنى أننى أيضاً لم أنقلها لأحد ، ولم أحدث بها ، مع أن عشرين عاماً مرت منذ سمعتها ..

ربما تسألون :

ما الذى جعلنى لا أنساها ؟ ولماذا قفزت إلى ذهنى اليوم لأضعها على
الورق ؟

لست أدرى لماذا بقيت فى زاوية من ذاكرتى ، لا أنساها ، وأيضاً لا
أحدث عنها ، ذلك أن ذاكرة الإنسان تذهلنا بأمورها .. لكننى أعرف تماماً
لماذا أحكيها الآن ..

كنت فى زيارة لطبيبى ، وقال وهو يكتب لى التذكرة :

- هذا الدواء له آثار جانبية قد تكون كبيرة لكثك فى حاجة ماسة إليه
.. لذلك لابد من متابعتك خلال تعاطيك له .. أبلغنى كل يومين تأثيره
عليك ، فى التليفون ... وربما نحتاج إلى دواء لتخفيف هذه الآثار الجانبية.

كنت أستمع للطبيب صامتاً ، فقد تعلمت منذ طفولتى على أن أكون
مريضاً " حصيئاً " ، بعد أن قرأت مقالاً بهذا العنوان .. نصحنى بأن أحسن
الاستماع للطبيب ، وأن أنفذ تعليماته بدقة ، وأن أطرح عليه من الأسئلة ما
أشاء ، من حقى هذا ، ومن واجبه أن يجيب .. وأنه لا عيب فى أن أكثر من
السؤال ، بل والتعليق .. ولم أحك له النكتة

تابع الطبيب حالتى ، ولم نحتاج إلى دواء جديد .. الله سلم .. لكن
ذاكرتى استحضرت النكتة ، وقلت لنفسى : إننى سوف أحكيها له فى أول



زيارة تالية .. ونسبت.. وبدأت أقرأ كتاباً يحتاج إلى تركيز شديد ، كنت أقرأ في ببطء شديد ، وبالطريقة التي كنا نستخدمها ونحن صغار .. كنا نضع خطوطاً بالقلم الرصاص على النقاط المهمة، ونستعيد قراءة بعض السطور أكثر من مرة .. تطور الأمر - الآن - وأصبحنا نمسك أفلاماً فسفورية ملونة ، نمر بها فوق ما نعتبره مهماً ..

الكتاب الذي كنت أقرأه يتحدث عن القرن العشرين وما حدث فيه، والقرن الحادى والعشرين وما نتوقع منه .. وتوقفت عند ثلاثة أسطر لونها بالكامل، وأنا بحاجة إلى نقلها إليكم، وهنا يتحتم على أن أذكر عنوان الكتاب واسم مؤلفه:

الكتاب : إدارة المعرفة والإبداع المجتمعى

المؤلف : محمد رؤوف حامد

وهو يحمل الدكتوراه فى بحوث الدواء ورقابته، لكنه لم يستخدم درجته العلمية هذه ، ولم يضع ما يدل عليها - حرف د - وأعتقد أنه فعل ذلك عن قصد هو أنه لا يكتب فى تخصصه الدقيق ، وإنما يكتب عن : الإدارة، والمعرفة، والإبداع والمجتمع ، وهو بهذا يلقتنا درساً ، نرجو أن يعين من يدعون لأنفسهم هذه الدرجة العلمية ، كما أن الأطباء - مثلاً - الذين يكتبون أدباً من المهم أن يكتبوا أسماءهم على أعمالهم مجردة من " د " ، إذ هم لا يكتبونها بصفتههم أدباء ..

ولدينا من يدعى كتابة البحوث والدراسات ويضع تحت اسمه ما لا يقل

عن عشر وظائف شغلها ذات يوم ! معذرة ، إنه درس يجب أن نتعلمه ..

المؤلف بلغت نظرنا إلى شيء مهم ، كان يحدث في الماضي .. كان هناك فاصل مكاني وزمني بين البحث العلمي من جانب والإنتاج من الجانب الآخر .. بمعنى أن إديسون قد اخترع شيئاً في معمله ، ويمر وقت طويل قبل أن يتم إنتاج هذا الاختراع ليذهب إلى المصانع لنتنتجه بكميات كبيرة كي نبيع في الأسواق .. بدأ هذا يتغير .. الشركات الكبرى لديها معامل أبحاث، ما إن تصل إلى (ابتكار) ما ، حتى تسارع الشركة بإنتاجه وطرحه في الأسواق ..

بعد هذا التوضيح أنقل الأسطر الثلاثة :

" ويُتوقع أيضاً أن يحدث الشيء نفسه مستقبلاً بخصوص الأدوية الممنوعة في كبسولات دقيقة تمكّن الدواء ، من الوصول والتأثير فقط في المكان المقصود داخل الجسم (العضو المصاب) " .

كل ما أرجوه ، أن تكونوا قد قرأتم الفقرة السابقة في بطل ، ويطريقتنا في الدرس والاستذكار ، وأن تكونوا قد فهمتم معانيها كل الفهم واستوعبتم ما قصدناه ونحن نختار عنوان هذه الحكاية ..

جدة المهاجر إلى كندا قبل سنوات بعيدة طرحت على طبيبها سؤالاً جعله يضحك من قلبه ، هو :

- هل يعرف كل دواء نتعاطاه طريقته إلى مكان المرض ، و (العضو المصاب) لكي يعالجه ؟



الإنسانية - أصدقائي - ستحاول ذلك ، وتجعل من هذه النكتة واقعاً ،
وحقيقة علمية ، نأمل الوصول إليها في مستقبل قريب ..

والسؤال :

- هل يكون واحد منكم هو الذى يحقق للإنسانية هذا الشيء ، وذلك
النجاح ؟

وبعد ..

هل يمكن أن ننهي ما كتبناه دون أن نوجه الشكر للمكتاب ، وصاحبه،
وناشره ؟

متحف الكتب

قالت لبنى الصغيرة الجميلة : أريد حكاية يا جدى .

- تعالى ..

أجلس الجد لبنى إليه ، وضماها ل صدره ، وقبل خدّها ، ولم شعرها ،
وقال ..

- كان يا ما كان ، فى سالف العصر والأوان ... انزلت لبنى من بين
ذراعى جدّها ، وقالت :

- لماذا كل الحكايات تبدأ هكذا ؟ ولماذا فى سالف العصر والأوان ؟ لماذا
لا تحدث اليوم ؟ فتح الجد عينيه ، وقصه فى دهشة تصل إلى حدّ الدهول
.. كان يريد أن يستدعى حكاية عن اليونانى إيسوب ، قبل ٢٥٠٠ عام ،
وربما من كليلة ودمنة ، أو من ألف ليلة وليلة ، لكن هاهى الصغيرة لا تقبل
حكاية من هذا القبيل ..

وها هى تقف أمامه ، رافعة رأسها ، مقطبة جبينها ، تطالب بحقها فى
أن تسمع حكاية ، قد تحدث غداً ..

لم تطل حيرة الجد ، فقد كان صاحب خبرة ، كما أنه قرأ آلاف القصص
من أوروبا وأمريكا وأستراليا ، غير أنها جميعها ليست مما قد يحدث غداً ،
ولمّا تبدأ بالفعل الماضى : كان .. وهو لا يريد أن ينقل إليها حكاية من
عنده ، سألها ليعطى لنفسه فرصة ، لعله يلتقط منها فكرة :

- ما الحكاية ، أو موضوع الحكاية التى تريدونها ؟

- حكاية عن زمن أت ..
- تعالى .. عودى إلى مكانك .
- عادت الصغيرة إلى حضن جدها وهى تقول :
- وأريدها طويلة .. طويلة .. طويلة ..
- راح الجد يفكر بسرعة قبل أن تورطه فى موضوع لا يستطيع أن يؤلف حوله حكاية محيوكة .. قال :
- فى عام ٢٠٨٠ كانت الجدة لبنى تسير فى الطريق، ممسكة بيد حفيدها يوسف.
- ضحكت لبنى ، وفهمت أنه يحكى لها حكاية عنها ، عندما تصبح عجوزاً .. وسألت:
- هل كانت تنوكتاً على عصا ؟
- لا لا .. لقد استطاع العلما ، أن يصلوا إلى الجينات التى تسببت فى ضعف الساقين والأقدام وعالجوها .. تعرفين الجينات ؟
- طبعاً ..
- استطاع الجد أن يمسك بزمام أفكاره ، والتقط خيطاً ، أو بداية خيط ، يمكن أن يمضي معه ..
- سأل يوسف جدته ..

- هل عشت أيام الملك مينا ؟

قهقهته الجدة ، وأجابت :

- الملك مينا عاش قبل خمسة آلاف عام.

- هل زرت بغداد في عهد هارون الرشيد ؟

ومن جديد راحت تضحك ..

- ولا في عصر بوش .. دعك من زمان ، وأيام زمان ..

- أنا أحب حكاياتها ..

وفجأة عثرت قدم يوسف في شيء ، لم يره ، كان مستنداً للرصيف ، فأبعده عن مكانه ، وسقط أمامه على بعد متر ، مال عليه ، والتقطه .. وراح يحدق فيه بدهشة كبيرة ، وهو يقلبه بين يديه سائلاً جدته ..

- أي شيء ، هذا ؟

- ألم تر كتاباً من قبل ؟

- لا .. ما هو الكتاب ؟

- هذا الذي في يدك ..

- ما هذه المادة المصنوع منها ؟

- اسمها الورق .. والغلاف سميك ومقوى من أجل أن يحافظ عليه ،



وبقيته سليماً..

- إن فيه كلمات كالتى نطالعها على الشاشة، وصوراً ملونة مثل التى تشاهدها .. من اخترعه ؟ إديسون ؟

- لا لا .. وجد نوع منه أيام جدودك فى مصر القديمة قبل إديسون بآلاف السنين..

- ماذا كانوا يفعلون ؟ !

- يقرؤونه .. يدرسونه .. يستذكرونه ، بالذات فى المدرسة ..

- المدرسة؟ وماهى المدرسة ؟

- بناء فيه فناء ، حوله حجرات ، يجلس فيها من هم فى سنك يتلقون العلم على أيدى المعلمين .

- ماذا ؟ ألم يكن كل منهم يشتري لنفسه معلماً ؟ !

- لا لا .. المعلمون كانوا بشرًا ..

- معلم مثلنا ، وليس كمبيوتر ؟

- أى نعم ...

احتجت لبنى وقالت :

- يوسف هذا ثرثار .. لا يكف عن الأسئلة .. أريد أن تسرد لى الحكاية

.. أين كانت الخدّة ذاهبة ومعها يوسف ؟

- كانا في طريقهما لشراء أجندة للقرن الثاني والعشرين ..
- هل احتفظ يوسف بهذا الذى اسمه الكتاب، أم سلمه للشرطة ؟
- أنت أصبحت ثرثارة مثل يوسف .. دعينى أحك لك الحكاية .. لم بعد الناس فى حاجة إلى الشرطة ، وأقسامها ، وألغى هذا النظام تماماً ، كل ما هنالك آن أصبحت هناك عشرات الكاميرات فى كل مكان ، يرقب منها رجال الأمن وهم فى بيوتهم ما يجرى ، ويبلغون السيارات المنطلقة التى تجوب الشوارع ..
- وقد أصبح من الصعوبة بمكان على اللصوص مثلاً أن يسرقوا أو ينشلوا .
وساد لون من الأمان والأطمئنان والسلام بين المواطنين .. القانون حاسم وقاسٍ على من تسوّّل له نفسه مخالفته ..
- قالت لبنى :
- أريد أن يمدد بى العمر لهذا الزمن ..
- ربما .. قد تعيشين كما عاش نوح .. المهم :
- اشترى يوسف وجدته أجندة للقرن الثاني والعشرين ..
- أجندة لقرن وليس لسنة مثل الآن ؟
- نعم، كانت قرصاً صغيراً ، فى حجم عقلة الأصبع ..
- ماذا ؟

- أنا غير قادر على أن أوصل الحكاية ، لأنك تقاطعيني .
- آسفة .. لن أفصح قصى بكلمة ..
- لم تكن الأجندة للأيام والأسابيع والشهور والسنين؛ لأن الناس لم يعودوا يستخدمون الثانية والدقيقة والساعة لقياس الزمن ..
- هل من مقياس آخر ؟
- نعم ، اتخذوا عدد دقات القلب لقياس الوقت .. بمعنى أن العلماء قد توصلوا إلى أن قلب الإنسان يبدق على مدى حياته حوالى ٨٠٠ إلى ٩٠٠ مليون دقة !
- ماذا ؟
- هي دقات قلب - كل ما - نسميها الثدييات .. قلب الفأر يبدق نفس العدد..
- ماذا ؟
- أنت تعرفين أن فقرات عنق الفأر ، وعنق الزرافة ؛ سبع فقرات .
- وماذا فعل يوسف وجدته فى الكتاب ؟ هل أخذوه إلى المكتبة ؟ !
- لا لا .. لم تعد هناك مكتبات .. قرص الليزر الصغير عليه خمسة آلاف كتاب، ما حاجتنا إلى بناء مكتبات ؟ ! .. أخذوا الكتاب إلى المتحف..
- كيف هو هذا المتحف لتزوره ؟
- لم يعد الناس يذهبون إلى المتاحف، بل إن المتاحف تذهب إليهم فى بيوتهم من خلال كاميرات.



التداوى بالحكاوى !

الداء ، نعالجه بالدواء ..

وقد تلازم ذلك منذ وجد الإنسان نفسه على الأرض .. يمرض ويبحث عن العلاج ، ويتألم فيسعى إلى ما يخفف عنه الألم ..

وقد طال بحث الإنسان عن أسباب المرض من أجل أن يشفى منه ، إلى أن تعرف على الجراثيم ، وخاض ضدها معركة ضارية ..

وما زالت هناك أمراض بلا دواء شافٍ ، بجانب أن الدواء قد يصيبنا هو نفسه بالمرض ، إنها رحلة وحكاية طويلة تستحق أن نحكيها ..

سأل الطبيب مريضه :

- ماذا ورثت عن أجدادك ؟

ضحك المريض ، وسأل طبيبه :

- ما علاقة هذا بمرضى ؟ .. لقد ورثت بضعة فدادين ، وبيتاً صغيراً و ..

وإذا بالطبيب يفهقه بصوت عالٍ ، ويقاطعه :

- مالى بكل هذا ؟ أعنى بسؤالى ما ورثته من أمراض ..

- أمراض ؟ !

- نعم ، أصبح من الضروري رسم خريطة لجينات الوليد فور نزوله من بطن أمه .. وربما قبلها وهو جنين ! لمعرفة ما ورثه عن أبويه وجدوده من جينات

متوارثة في كل من عائلي الأب والأم ..

- هذا شيء جديد على ..

- لا لا .. لقد قالها المثل الشعبي من قديم :

" العرق يمد لسابع جد "

فهذه المريض من أعماق قلبه ، وقال للطبيب :

- بدأت منذ بعض الوقت تعودون إلى طب الأعشاب ، والأدوية الشعبية ، هل سوف تعالجونا بالأمثال الشعبية ؟

وربما يمتد الأمر إلى الحكاية الشعبية كذلك ؟

لم يضحك الطبيب ، وقال في جذبة شديدة :

- هذا وارد ، ألم ترد في المحدثات الشعبية عدة مرات " التفاحة الذهبية " التي تشفي كل الأمراض ؟

صمت الطبيب ، يدبر الفكرة في رأسه ، وقد انبهر بها ، وطار إعجابنا بما يقوله الضيف :

ثم ابتسم ، وقال :

- أنت لم تتعد كثيراً عن الحقيقة ، ويتداول الأمريكيون والأوروبيون ، وفي البلاد المتقدمة عامة عبارة " العلاج بالقراءة " ..

- سمعت وقرأت عنها ، وتصورت أن الأمر لا يتجاوز تسليبة المريض

بالقراءة له، كما يقال: " اقرأ لطفلك " و " اقرأ لمريضك " .

- لا لا .. المسألة أكبر وأبعد مدى من هذا .. ومما لا شك فيه أن هذا سوف يكون لوناً من ألوان العلاج في القرن الحادى والعشرين ..
ابتسم المريض ، وقال :

- لنا أن نتوقع كتباً تحمل عناوين ، مثل :

" قصص لعلاج مرضى الكبد والمعدة " ، أو .. " يتعاون فى روايتها طبيب ، ومعه متخصص فى الحكايات " .

- نعم ، وهناك كتب وقصص ، يحذرون المرضى من قراءتها ، ولا يرتاح الأطباء ، لقصص الرعب فى أيدي مريض القلب ..
قال المريض :

- سيدى الطبيب أخاف أن أكون قد عطلتك وأخذت من وقتك الثمين
ما لا يحق لى .

- حوارنا يضيف لى الكثير ، لا تنزعج لوقتى ..

- لكن ما الذى جرننا لكل هذا ؟

- ما طالبتك به من خريطة الجينات المتوارثة والتي قد تحمل توقعاً ،
يجب علينا تفاديه .

قال المريض :

- ذكرتني بحكاية صغيرة حدثت لى مع الطبيب العبقري المرحوم أنور المفنى .. كنت فى انتظار دورى فى عيادته، لأول مرة .. قلت لنفسى : أتسلى وأدفع عنى الملل، ورحت أكتب حكايتى مع المرض منذ وعيت للحياة .. وعندما استقبلنى قدمتها إليه، وألقى عليها نظرة وقال :

" لو أن كل مريض صنع هذا لوقر على ثلث أو نصف وقتى معه " !

هتف الطبيب :

- هذا شىء رائع ، وإن كان يتواضع إذا ما قيس بما أطلبه من مرضاى : خريطة جيناتهم الوراثية .. وكانت هناك بذور لهذا فى القرن الماضى حين يسأل الطبيب مريضه : هل عانى الأب أو الجد من هذا المرض .. هو يريد أن يستشف إن كان هذا المرض وراثياً أم كان طارئاً على صاحبه .

غادرت عيادة الطبيب، ولم تغادر فى قط كلسة واحدة مما تبادلناه من حديث، ورحت أديره فى رأسى، بل وأضع بعض أطرافه على الورق، وأقول لنفسى :

- فالتنى أسئلة كثيرة كان يجب أن أطرحها عليه، وأفكار عديدة كان لابد أن أناقشها معه، لعل فى مقدمتها: هل تتوقع يا دكتور أن يكون هناك تخصص مستقبلى فى الطب، ومراكز لرسم خريطة "الجينات الوراثية"، وأن تكون هذه الخريطة هادية لنا فى توقع مرض بذاته فى سن معينة ؟

من المؤكد أن الإجابة ستكون نعم .. وستكون على أوسع نطاق، كما حدث فى مجال معامل التحليل والتصوير المجسد والملون، وما تجر به من رسم للقلب وما يسمونه الرنين المغناطيسى و و و



كانت الأسئلة التي تظهر في رأسي لا تنقطع ، وأطرف ما فيها أنني - وصلتني بالطب لا تتجاوز أنني مجرد مريض - أستطيع ببساطة أن أجيـب عن العديد منها..

- هل يمكننا ، يا سيدي الطبيب ، أن نتوقع حدوث المرض ، بواسطة هذه الحُرْطَة، وننجح في اتقائه أو علاجه قبل أن يصيبنا ؟

الجواب : نعم، خاصة وأن تكنولوجيا الدواء تتقدم.

وأداعب نفسي ضاحكاً :

- من بين هذه التكنولوجيا أنني أتوقع أن تفتح د . نبيلة إبراهيم - المتخصصة في الأدب الشعبي ، والدكتوراه التي حصلت عليها من ألمانيا حول الأميرة ذات الهمـة - عيادة أو مستشفى صغير لعلاج المرضى بواسطة الحكايات الشعبية، وأن يقيم د . أحمد مرسى شيئاً من هذا القبيل ، وهو الذي أعطى كل عمره للأدب الشعبي ؟ وهل يفكر أ. صفوت كمال - جامع الحكايات الشعبية الكويتية أن يعود للكويت بمشروع مماثل ؟ !

وضحكتُ .. فقد بدأتُ " أكلم نفسي " .. وهذا له معناه!

هم ، إذا فكروا فيه منذ الآن ، من المؤكد أنهم سوف يشاركون فيه ، وفي ابتكاره ، وربما رأينا بطاقة أحدهم مستقبلاً تحمل اسم واحد منهم ، فلان: رسام خرائط الجينات الوراثية " بدلاً عن بطاقة أحدهم التي تضمنت ثمانية أسطر ، في آخر كل منها : سابقاً ، بينما أطفالنا يبنون لنا مستقبلنا الزاهر والمشرق ..

ومن المؤكد أن دواء المستقبل سيكون أكثر فاعلية ، خاصة عندما يتجه مباشرة لعلاج الجزء المريض ، ولا يسبب أضراراً جانبية ..

قادنى حديثى مع نفسى إلى تذكر طبيب أطفالى .. رحمه الله .. كان فذاً .. رائعاً .. أحمل إليه صغيرتى ، يكشف عليها نصف ساعة ، ويعطينا تذكرة الدواء ، ننظر إليها فى ذهول ..

- ماهذا يا دكتور عبود ؟

- نصف قرص أسبرين ، ولا شىء آخر ..

- الطفلة لبنى مريضة جداً ، والدكتور (.....) يكتب لمن أقل منها مرضاً تذكرة أدوية من صفحتين ..

يقول فى ثقة وتؤدة :

- دعوا الجسم بهزم المرض .. دعوه يفرز من عنده ما يببى هذه الجراثيم ، لا تعوقوه عن أداء هذه المهمة الجليلة ، وتعهدوا بها إلى الدواء المصنع ..

دعوا الجسم بخلق لنفسه مناعته .. دعوه يكون طبيب نفسه .. طبيب ذاته .. صفحة الأدوية تؤكد أن صاحبكم لم يعرف حقيقة المرض ، وأعطى دواء لكل احتمال ، هو يقتل المناعة عند الأطفال .

وأهتف فيما بينى وبين نفسى :

- ما أروعك يا دكتور عبود ، أنت بحمد الله وراء المناعة الشى يتمنع بها أطفالى بعد ما كبروا ..

والقرن الحادى والعشرون سيعتق فكر د . عطية عبود .. سيجعل الجسم من تلقاء نفسه يفرز قوات بأسلة لمقاومة جيوش الجراثيم ، ويرفض أن تستعمر أجسام أصحابها ، وسوف يوقع بها هزائم حاسمة .. وهذا ما يفعله الأنسولين وما يقوم به هرمون النمو عند أجيالنا الصغار ، الذين هم قادرون على المحافظة على صحتهم ، اعتماداً على قدمين يسيان عليهما : الغذاء والرياضة ..

فى الأسواق أدوية ، ومستحضرات طبيعية تعين على ذلك ، لكن كلفتها عالية ، ونمتها مرتفع ، ومع الأيام والعمل ستصبح أكثر وأرخص .. أجسام البشر ستصبح معامل ومصانع للدواء الذى تحتاج إليه ..

لقد حلمت الإنسانية بإنسان سليم ، خالٍ من المرض ، هل سنستطيع أن نجعل الوليد ينزل من بطن أمه على هذه الصورة ، إذا ما نجبنا فى استبعاد الجينات الوراثية التى تسبب المرض ؟! ثم هل علماء هذا القرن الجديد فى مقدورهم أن يحموا هذا الوليد السليم الصحيح ويحولوا بينه وبين أن يمرض ؟!

تخيلوا هذا ..

لقد منحنا الله عقولاً تفكر بها فى الوصول إلى هذا الحد ، أو شئ قريب منه ، راقضين ما قاله ذلك الشيخ ذات يوم : هذا ضد مشيئة الله ! ، وكم أزعجتنا قوله السخيف هذا ، مع أنه من المؤكد أنه ردد على مسامعهم المقولة الحكيمة :

- إن الله خلق الداء والدواء ، فتداوا !



والناس منذ خلقهم الله يتداون .. عقلهم هداهم إلى هذا ، وجاءت هذه الحكمة لتؤكد على صدق ما ذهبوا إليه ، منذ عهد مصر القديمة ، الفرعونية ، مروراً بواحد من أكبر العارفين بالدواء في التاريخ ونعني به شيخ العشابين ابن البيطار وصولاً إلى معامل بحوث الأدوية في البلدان المتقدمة .. والتي تجرى تجاربها على الحيوان ، قبل أن يتعاطاها الإنسان ، ومن المؤكد أن التضحية بالفئران البيضاء أجدي على الحياة على الأرض والبشر ، بدلاً عن ضحايا المرض..

وترد إلى فكرة تضحكننا ..

- هل يمكننا أن نجرب " التداوي بالحكاوى " ؟ !

وكان الجواب: نعم، وهذا ما صنعته الجدات والمجذود مع الأحقاد ، دون الحاجة إلى التجريب في المعامل ، ومن غير أن نحتاج إلى فئران تجارب .. وخطر في بالي أن أسجل فكريتي هذه ، وأن أحتفظ بحق ملكيتها لك ، وسخرت من نفسي ، خاصة بعد أن علمت أن عشرة بالمائة فقط من الأدوية التي يتم تحضيرها ، هو كل ما يعترف به ، والباقي - تسعون بالمائة - لا يتم تسجيله ، وهناك ثلاثة بالمائة فقط تنجح في أن يتم إنتاجها استثمارياً ..

الحكاية طويلة

المارد القزم

عندما أشعر بالملل والسأم ، أستدعى مازد مصباح علاء الدين أو عفريت القيقم والزجاج ، أو جنى خاتم سليمان ، وأداعب الواحد منهم صاحكا ساخرا ..

إننى كثيرا ما أتسلى بهم .. مرة أقول لواحد منهم :

- لا أحب العبودية ، أنت حر ..

ويصرخ لأنه لا يعرف ماذا يفعل بالحرية، وقد تعود على العبودية، ومرة أسأله:

- هل تعرف " الجينات " ؟ ونكون إجابته أنه يعرف الجنيات والمحوريات .. أنهره، وأحرقه طالبا أن يعود إلى وقد درس " التكنولوجيا " الحوية .. وعندما أعدته، سألته أن كان قد درسها، قال :

- ليس فى عالمنا شىء من هذا القبيل ..

- قل لى : ماذا يدور فى هذا العالم الذى تعيشون فيه ؟ ! أين هو ؟ ماذا تفعلون غير انتظار أن نستدعيكم إلينا لتتفتوا " شيبك ليك " ؟

- لا نفعل شيئا ..

- تعيشون عاطلين بلا عمل أو نشاط ؟

- نعم .. وربما نتزوج من جنيات وتنجب عفاريت صغارا ، لتخلفنا فى مهمتنا بعد عمر طويل ..

استنكرت عبارته ، يتحدث عن عمر طويل ، وصاحبنا الذي كان من المقمّم ظل فيه كما قال ثلاثة آلاف عام .. لذلك قلت له ..

- أتريد ، يا طويل العمر ، أن يزداد عمرك طويلاً ؟

- لم لا ؟ ! .. لنخدم الإنسانية ..

- أي خدمة هذه وأنتم تحققون لهم ما يريدون في غمضة عين ، تأتون بالمجوهرات، وتبنون الفصور ، وتنقلونها بكل بساطة ؟

- لقد وجدنا من أجل هذا !

- أنتم تفسدون على الناس حياتهم ، وما من جدوى منكم إلا تحويلهم إلى عاطلين بالوراثة .. أحنى الجنى رأسه ، وقال لى ..

- هل تسمح لى يا سيدى بالجلوس .. لننحدث ؟

قلت وأنا أشير إلى مقعد قريب :

- تفضل .. ولا تحاول أن تقوم بواحد من أعمالك العفريتية ..

- أمرك يا سيدى .. أنا لم أجالس أحداً من قبل .. فقط أتلقى الأوامر وأنصرف لكى أقوم بتنفيذها ..

كنت مثله ، لم أجلس يوماً إلى مارد أو جنى أو عفريت .. ولكى أمنح نفسى فرصة لطرح ما عندى من أسئلة، قلت له ..

- أتحب أن تشرب كوب ليمون ، أو فتجان قهوة ، أو ..

قال : لا لا .. نحن لا نشرب شيئاً .. المفروض أننا من نار وتعرف أن الماء يطفئها ويقضى عليها .. قلت له :

- حدثني عن عملكم .. وحياتكم .. وعالمكم ..

- عملنا! عالمنا! حياتنا .. ليس هناك شيء من هذا القبيل .. نحن وهم .. نحن خيال .. نحن مجرد " حدوتة " .. حكاية .. قصة لا أكثر ولا أقل .. سيدنا سليمان لم يكن لديه هذا الخاتم الشهير ، وعلاء الدين نفسه شخصية خيالية مثل مصباحه ، ولم يكن هناك عفرية في القمم أو الزجاجية ، وهما أيضاً لا وجود لهما .. لكن الناس استمتعت بإيجادنا وابتكارنا ، واختراعنا من عندها .. هل تراني حقاً أجلس إلى مقعد أمامك! .. الحقيقة المرة أنك تتحدث إلى نفسك ، وتحجب عن أسئلتك ، وتلعب بالفكرة التي هي خيالية مثلي ..

- ألا يمكن أن يكون لك وجود حقيقي ؟ ..

تخيلنا الطائرة والغواصة ، وتوصلنا لصنعهما !

- أنا يا سيدي " وهم " .. هل يمكن صناعة " الوهم " ؟

لم أرد .. سكتُ .. أدير السؤال في رأسي .. ما أصنع به! .. لكنني أعرف رجلاً جعل من نفسه " وهماً " .. تصوّر أنه " مؤلف " وهو لا يؤلف شيئاً .. وتخيل أنه " كاتب " وانضم لاتحاد الكتاب ، وصارحنا يوماً أنه لا يكتب قصصاً من لون الخيال العلمي ، وهو لا يكتب شيئاً على الإطلاق .. لكن خلق من نفسه مارداً وعملاقاً ، وجناً وعفريتاً ، وهو مجرد قزم ضئيل أشبه ما يكون بمخلوقات " توف يانسون " الفنلندية أو " ماري نورتن " البريطانية ، وربما مثل " الهوتس " التي يتحدث عنهم " تولكن " ، وهم يكبر هو والعلم

والتكنولوجيا ، وصاحبنا ضئيل وحفير ، يسرق بضعة أعواد من مقشة ، أو إبرة خيطاً ويسارع إلى ما تحت الأرض ، كأي لص .. وقبل أن يفعل ذلك يروح يحدث الدنيا عن نفسه ، وإبداعاته ، وعبقريته .. ويختفى فترة ، يدوسه خلالها الناس والأطفال بالأقدام .. ويحدث أن يهرب إلى أنابيب المجارى ومواسير الصرف ، التي هي مصيره .. ولم يحدث الجني بكل هذا ! لكن هذا الإنسان الجني المارد ، أراه دائماً منتفخاً مثل بالون ، وعندما يلقاه أطفالنا ، أو يرون كتاباته ، فإنهم يتعاملون معها بدبوس صغير .. يأتي عليه ، وعلى نفخته الكذابة .. عندما طال سكوتى سألتى المارد :

- ماذا هنالك ؟ فيما تفكر ؟

- أفكر فى " مارد " فارغ مثلك .. وأفكر فيما سمبته "صناعة الوهم" ..

- هل تشتغل بها ؟ !

- إننى أحاول أن أجعل من الوهم حقيقة ، من الحكاية واقعة .. كما أصنع معك الآن ، وأصنع بك !

- إنها مهمة صعبة ، بل أكاد أقول إنها شبه مستحيلة .

- هذا هو التحدى الحقيقى الذى يواجهه أمثالى .. نخلص لقضية ، نعيشها ، نعيشها نخلص لها ، نعطيها أنفسنا ..

- وهل تعطيككم نفسها ؟

- هى تعض علينا بذلك ، بل هى وبحق " تفضينا " وترهقنا بل وتعذبنا ،

وتتعبنا إبداعا وخلقا؛ لأننا نحاول أن نرتاد عالماً ، أشبه بما يكون عليه
عالمكم .. بينما يتبجح اللصوص الأتون من عالم وهمى مثل عالمك .. عالم
خرافي، وهمهم وخرافتهم سوف تذرو بها رياح الحقيقة وعواصف الواقع ،
ليبتدوون هم وأعمالهم ، وتذهب بلا عودة أعمالهم وأيامهم ..

سألته :

- ألا تشاقق للعودة إلى عالمك ؟

- هذا خير لي ، ولك ..

- انصرف ..

ويختفي المارد ، الذي لم يكن موجوداً أصلاً .. وأمدّ قدمي إلى المقعد
الذي كنت أتصوره جالساً فيه ، وكلّيت رغبة في أن أنفضه من رأسي ،
وأطرده من دماغي ، خاصة وأنتى اكتشفت أنه يحتل ركننا منها ، ولا بد لي
من التخلص منه بالكامل ، كفكرة ..

كان سبيلي إلى ذلك سهلاً وميسوراً : أن أحصل الخاتم ، والمصباح ،
والقمقم ، وألقي بها في البحر .. لتهيّط إلى الأعماق ، حيث لا يصل إليها
يد إنسان ، ورأيتني أضحك على نفسي: إذا كانت هذه الأشياء ، أصلاً ،
وهنا وخيالاً ، كيف السبيل إلى التخلص منها ؟

والحقيقة أنها مشكلة ، ولا أجد لها حلاً .. لذلك رأيت أن ألجأ إلى
أصدقائي القراء الصغار ، ليفكروا معي ، وليساعدوني على التخلص من
هذا المارد القزم ، وإلى الأبد ..

بنوك الأعضاء الخيبة

قالت جدتي :

- الحى أبقى من الميت .

وراخلون كرماء ، يعرفون أن أعضاءهم كافة تموت معهم ، فلماذا لا يتبرعون بها لأناس أحياء ، هم فى حاجة إليها ، قد تنقذ حياتهم ، وتمد فى عمرهم من أجل أن يواصلوا عطاءهم للإنسانية .. وهنا يبرز سؤال مهم ، تختلف الإجابات عنه .. السؤال هو :

- هل يملكون هذا الذى يتبرعون به ؟

وماذا لو وجد من يتاجر به ؟

نيل أن يتبرع أحدهم بدمه ، لكن هناك من يتاجر بهذا التبرع ، ويأخذ عليه الثمن .

- ما العمل ؟

وما العمل فيمن يتبرع بما يسمى (قرنية العين) أو (الكبد) أو ... وهنا من يقول ..

- هذا حلال .. شرط ألا يكون له ثمن ، وأن يكون " تبرعاً " حقيقياً .

وفجأة نعلم أن هناك ما يسمونه " بنوك الأعضاء " ، الناس ، كما يودعون أموالهم فى البنك ، يذهبون إلى هذه البنوك الجديدة ليودعوا أعضاءهم .. وكما يذهب صاحب الحساب ليسحب من ماله ما يشاء ، يتجه الأطباء ، إلى

بنوك الأعضاء الحية

بنك
الرئة

بنك
القلب



بنوك الأعضاء كى يطلبوا من البنك عضوا بذاته يحتاج إليه مريض ، وإلا ودع الحياة ..

هناك رصيد مما " يتبرع " أو " يودعه " أصحابه .. وهناك أقسام تحتفظ به ، وتحافظ عليه إلى حين الحاجة إليه .. وهناك طبيب يطلب قلباً ، وآخر يريد كبدًا ، وثالث يرغب فى قرنية عين ، أو ... أو ... ويصرخ البعض فى وجه هذه البنوك...

- هذا حرام قطعاً !

ويرد أصحاب البنك :

- هذه الأعضاء ستهلك ، والعقل الذى منحنا الله إياه يقول : لماذا نهدرها ؟ ..

ويسألهم كثيرون :

- هل تملكونها ؟

- أصحابها وهبوا لنا .

- وهبوا أم باعواكم إياها ، وهم وأنتم لا تملكونها ..

البعض يرفضون هذه البنوك ، وقد أدانوا البنوك المالية من قبل ، ورأوا فى أرباحها ربا ، مع أن البنك يكسب من ورائها أكثر مما يعطيهم ..

وطبيب الأسنان ، الذى أراد عبقرى فى عمله د . سامح برسوم يشكو لى مريضه .

- طب الأسنان ، أكثر أنواع الطب تخلفاً !

أضحك ..

المفروض أن أشكو له ألامى ، ولكن الوضع تغير ، وهو الذى يشكو ، ومن مجال تفوق فيه ، ويرى أن هذا المجال تخلف طويلاً عن طب القلب ، مثلاً .. هم قادرون اليوم على إحلال قلب مكان آخر ، وكبد بديل عن كبد لا يؤدى دوره ، لكنهم فى طب الأسنان لم يستطيعوا ذلك ، وما من بنك للأسنان مع شدة تعقيد استبدال القلب والكبد ..

وأضحك ..

أقول له : هم يصنعون ويزرعون الأسنان ، الآن .. ألا ترى ذلك تقدماً ؟

- أريد أسناناً لا يصيبها السوس ، وغيره .. وإذا ما حدث يجب أن يكون سهلاً وسريعاً ، لا يحتاج صاحبه إلى هذا الكرسي الذى تشبه أنت بالكرسي الكهربائى ! تذكرت هذا التشبيه الذى أتندر به ، وسألته فى جدية :

- هل تتصور أن من الممكن إنشاء بنوك للأسنان ؟

- لا أظننا فى حاجة إليها .. رحلات الفضاء ، يسرت لنا مادة لا تقل قوة عن الأسنان الطبيعية .. لكن ما أطلع إليه هو : أسنان لا تعطب ولثة لا تضعف ، أرغب فى أن ينسى الناس أسنانهم ! هو يردد هذه العبارة الرائعة ، إذ إننى لا أذهب إليه إلا إذا ذكرتنى آلام أسنانى بضرورة ذلك ، وهو بما يقوله هذا كأنما يسعى لإنهاء ، هذا الفرع الخطير الذى برأ متخلفاً ، ويود أن

يتقدم إلى حد أن نصبح في غير حاجة إليه..

وهي " فكرة " ..

هل مستقبلاً تختفى لافتة : طيب أسنان ؟

هل تختفى كلية طب الأسنان !! .. إننا نستخدم أسناننا على مدى اليوم .. وتعطب .. وتمرص .. بل نجز بها على شفاهنا، كما أنها تعيش وسط بيئة قنلى بالجراثيم، وترتكز على لثة هشة، وإن كانت عظمية، ولست أنسى أننى سألته مرة :

- ما هذا الذي تصنعه بى ؟

أجاب ببساطة : المصنع يحتاج إلى تقوية عظام الفكين، أى أن أمور الأسنان أكثر تعقيداً مما أظن. أعرف أن حجة أصحاب بنوك الأعضاء، سوف ترجع فى مستقبل الأيام، ذلك أن الأديان كما قال شيخى : " حمالة أوجه "، أى أنها قادرة دائماً على أن تجد فى عبارة " فيها قولان " ، قولاً يبيع لها الكثير ، خاصة وهى ترفع شعار :

- الضرورات تبيح المحظورات !

انتهى الأمر ، ثم حسمه على أوسع نطاق .. وقامت بنوك الأعضاء فى شتى أرجاء العالم ، بل وصلت إلى " البلاد الفقيرة " ، واتسعت ونعددت، فما أكثر هؤلاء العاطلين الذين لا مانع لديهم من الانخار فى أعضائهم ، وهم على يقين من أنهم لن يكونوا فى حاجة إليها ، كما أن الذين يرغبون فيها كثيرون وعلى استعداد للتضحية بالمال الكثير والتنازل عما يملكون



فى سبيل الحصول على قلب، أو كيد ..

وازدهرت هذه البنوك، ربما أكثر من بنك روتشيلد .. وتضخمت فيها الأرصدة، وأصبح نقلها من مكان إلى آخر ميسورا . بل ربما أسر من نقل الأموال .. بل ظهر استثمار جديد يمكن أن تطلق عليه " غسيل الأعضاء " . أسوة بغسيل الأموال، وقد وقفت يوما أمام ناطحة سحاب، فى نيويورك، قبل لى إنها مقر لبنك واحد، وأتصور أن " بنك الأعضاء " لن يقل عن هذا المبنى الضخم ارتفاعا، ومساحة، وهو لن يحتوى قلويا فحسب، بل ربما تكون فيه أقسام لحفظ " الأظفار "، و" الجلد "، وبضعة أمتار من الأمعاء، وسيكون العلماء قد توصلوا إلى نقل الرنتين، والمعدة، والطحال، والبنكرياس وكافة أعضاء الجسم، بل والغدة مثل الغدة الدرقية، والغدة النخامية التى تقع أسفل الرأس من الخلف ..

وفى تقديرى أن ناطحة السحاب هذه ستكون أشبه بما هو عليه الآن فى محلات بيع قطع غيار السيارات ، وأظنها بالآلاف ، وكل طراز له قطعه البديلة .. وعلى مستوى صناعتها ..

زراع الأعضاء . سيكون فى سهولة استبدال قطع غيار السيارات ، وفى يسر زراعة القمح والذرة والبطيخ ، وإذا كان الأمر كذلك ، فمن ذا الذى سوف يزرع الأسنان غير أطبائها ؟ !

وقد بدأت الفكاهات تدور حول هذا " المصنع " الذى سيقوم بعد سنين طويلة ، بزرع الأعضاء ..

وستكون آلات هذا المصنع مزروعة على عدة خطوط .. هناك من يعمل

على تغيير الجهاز الهضمي وتركيبه ، وآخر للجهاز التنفسي ، وثالث للدورة الدموية والقلب ، أما الأخير فإنه يعمل على استبدال المخ بآخر متميز ، وميدع ، ومفتوح .. وتقول الفكاهة: إن هذا الخط الأخير لم تكن لديه مادة كافية لهذا التغيير ، وعندما وصلت مذكرة بهذا الشأن إلى السيد رئيس مجلس الإدارة كتب عليها تأشيرة تقول :

" يتم تقبيل الروس على أمخاخ تقليدية قديمة ، متعصبة ، لانتحار رذيلة التفكير " . وشفع هذا بإمضائه الكريم .. ثم أضاف :

وذلك توفيرا للميزانيات.

بدأت الفكاهات قبل إنشاء " مزرعة " لزراعة الأعضاء الحيوية ، ورأى أصحابها أن يكون هناك " مصنع " كامل شامل لكافة الأجهزة والأعضاء التعويضية .

إنسان لا يمرض !

أصبحت - أنا تامر - مريضاً بعلم الأحياء منذ أن تعرفت عليه ؛
لأنه العلم الوحيد ، الذى يحل كل مشكلات الإنسان مع المرض ،
وأعنى بذلك أننى أريده أن يحيا مع الأرض بلا مرض ، كل عمره ..
ورأيت أن أذهب إلى طبيب ، بصحبة أمى ، وأقول له فى صراحة
وهذه :

- لا أريد أن أصاب بالمرض قط ..

نظر إلى الطبيب نظرة فهمتها جيداً .. وتجاهل ما قلته وسألنى فى
هدوء :

- مما تشكو ؟

قلت : من كل شىء ، ومن لا شىء ..

قام الطبيب بتصرف كنت أتوقعه ، إذ امتدت يده ليضعها على جبينى ،
فابتسمت وقلت :

- حرارتى طبيعية يا دكتور ، ولم ترتفع بعد إلى حد يجعلنى " أخزف " ..

رفع يده عنى

قلت :

- أنا جاد يا دكتور ..



قال : هذا يخالف طبيعة الحياة، مادمت " حياً " .. أنا طبيب أعالج المرضى " ولك أن تذهب إلى واحد من " علماء الحياة " ..
سألته : أين أجدهم ؟

- ابحث عنهم، ولا تأت إلي إلا إذا كنت مريضاً.
- أنا لا أريد أن أتى إليك مطلقاً .. لأنى أريد إذا حدث ومرضت على أن أكل التفاحة المناسبة ..
- لم أسمع بها :
- إنها التفاحة التى تشفى صاحبها من الأمراض كافة، ..

نظر الطبيب إلى أمى - يستنجد بها- وخلع القفاز الذى وضعه فى يديه عندما دخلنا إليه ..

قالت أمى : معذرة ، فقد طلب منى أن نستشيرك ولم أكن أعرف أو أتصور شيئاً مما يقوله .. شخصياً لم نخطر ببالى فكرة ألا يمرض الإنسان، ولم يحدث أن طافت برأسى حكاية التفاحة المناسبة التى تشفى الأمراض كافة ..

نظر إلى الطبيب فى يأس ، وكان يود أن يشير على أمى بضرورة عرضى على طبيب أمراض عقلية .. مع أن كل ما طلبته هو حلم من أحلام البشر منذ وجدوا على ظهر الكرة الأرضية .

عابتنى أمى عقب خروجنا من عيادة الطبيب :



- ما هذا الذي طلبته من الطبيب ؟ إنسان دون مرض ؟

قلت : أعرف أنى بذلك ألغى الطب والأطباء .. تعرفين يا أمى أننى أحب جدى . ولا أتصور الحياة من غيره .. لكن جدى بين يوم وآخر ، يمرض ويلزم الفراش ، وأحياناً نضطر إلى نقله إلى المستشفى ، وأضيق ذرعاً عندما أعود من المدرسة ، ولا أجده بالبيت .. وأتصور يوماً أنه ذات مرة سيذهب ولن يعود ، ويعتربنى الجنون ، وأصارحك يا أمى أن الإبقاء على المرض والأطباء جريمة ..

وأسأل : لماذا لم يفكر العلماء والأطباء فى إنسان لا يمرض ؟

- ماذا تعنى؟! هذا مستحيل ..

- أعنى أن الإنسان يفكر فى الداء والدواء .. إننى أريد أصلاً أن أقتل الداء .. وبالتالي لن نحتاج إلى الدواء ..

- هى فكرة تبدو لى غير ممكنة ..

- هل سألتنا أنفسنا ما الذى يسبب المرض ؟

- قد تقع حادثة ، وهذا يقع كل ثانية ودقيقة ، وقد تصيبنا الجراثيم .. والفيروسات .. وقد يتعطل جهاز عن أداء وظيفته ، ونحن آلات ، لا يمكن تفادى المرض ، ثم إن لكل أجل كتاباً ..

- هيا يا أمى نناقشها واحدة بعد الأخرى ..

- الحادثة سيارة ، شخص يسقط ويصاب ، و ...

ابتسمت أمي :

- هل نقدر على أن نحصى أنفسنا من ذلك ؟ .. ربما نحاول . ولكن : لا
يعنى حذر من قدر ، هذا هو قانون الحياة ..

- ألا نستطيع أن نقضى على الجرائم ؟ كل الجرائم الموجودة فى
الدنيا . إنها صغيرة ضئيلة لا تُرى .

- ربما كانت قوتها تكمن فى ذلك .

- وماذا عن البكتريا ؟

- نفس الشئ . يا تامر ..

- ثم ، ما هذه الفيروسات ؟

- عرفناها مؤخرًا ، ونقاومها ...

- وتقوية المناعة ، هل يمكن أن تكون سبيلنا إلى الإجهاز على المرض ؟

- الجينات المتوارثة ، هل يمكن تفاديهما ؟

ضحكت وقالت :

- أرى أن تخصص فى علم الأحياء ، والهندسة الوراثية ، والتكنولوجيا
الحديثة ، ربما يكون فى ذلك خدمة للبشرية ، بأن تتقدم ولو خطوة فى هذا
الذى يشغل فكرك وبالك .

أؤكد لكم أنتى لست " مريضًا بالوهم " .. لكن هناك ما هو ليس بوهم .

إنما هو " هم " يؤرقنى ليل نهار ..

- كيف أجد السبيل لكى لا يرث الأبناء أمراض الآباء ضمن ما يرثونه من مال وعقار ؟

- لماذا يرثون هذا ، ولا يرثون ذاك ؟ .. أريد إنساناً يولد بلا مرض وراثى ..

إنى مستعد لأن أتقبل فكرة أن أتنازل عن كل ما يرثه الإنسان عن أبيه وجده، من مال وعقار وتحف، مقابل ألا أرث عنهم أمراضهم ..
قالت أمى :

- آه .. أنت تريد أن تتكلم عن العلاج بالجينات

- لا لا .. أنا أريد الجينات التى نرثها سليمة مائة بالمائة .. أو ألا نرثها ..

ابتسمت وقالت :

- لولا ما نرثه عن الأجداد والآباء ما صنعنا حضارة .. نحن لا نرث المال والجينات فحسب، بل نرث أيضاً العلم والمعرفة، وهكذا يتراكم ليصنع المدنية والتقدم..

ابتسمت وأضافت :

- كنا نعالجكم صغارا لدى طبيب ، أعترف بعقريته ، بعد أن ودع الدنيا منذ عدة سنوات .. والحديث عنه هنا ليس دعاية وإعلاناً ، ولا إعلاناً..

لكنى أريد أن أحكى عن نظرتي ونظريته للمرضى، أذكر اسمه أولاً..

- اسمه د "عطية عيود".

آلاف غيبي يعرفونه ، رحمه الله ..

عندما كنا نذهب بكم إليه، يقول بعد الفحص الدقيق :

- هو بخير ، نصف قرص أسبرين عند الحاجة ..

- دكتور ، الصغير حرارته مرتفعة و ... و ... عندما مرضت أنت

اضطربنا لعرضه على طبيب آخر كتب له تذكرة أدوية من صفحتين !

- إذا شئت اذهبي إليه ، ولا تأتى به إلى .. مدرستي في الطب أن أدع

الطفل يهزم المرض دون مساعدة من الدواء .. هذا يكون لديه المناعة عندما

يكبر .. أما الدواء الكثير فهو داء أكثر منه دواء ..

- هذا يا أمي طبيب رائع .. الأروع أن يأتى طبيب لكى يلقى المرضى

أصلاً..

- كن هذا الطبيب ، ذات يوم .. مستقبلاً !

خريطة الجينات

سوف تذهب يوماً إلى الطبيب ، وبعد الكشف عليك ربما يقول لك ..

- أريد خريطة جيناتك !

- نعم .

- هل سمعتنى ؟

- وأدهشتنى ، من أين أتى بهذه الخريطة ؟ من هيئة المساحة ؟ يضحك الطبيب ويقول لك :

- مكاتب هذه الخريطة متشرة فى كل مكان .. بعضها ملحق بمعامل التحليل .. هل هذه أول مرة تطلب منك هذه الخريطة ؟

- نعم .. طلب منى تحليل الدم والبول .. وأيضاً طلب " رسم قلب " ، أو " أشعة مقطعية " وربما " رنين مغناطيسى " أو ... أو ... أما أن تطلب منى خريطة ، فهذا آخر ما يمكن تصوره ...

قال الطبيب فى حسم :

- الطب تقدم .. هل كانوا يطلبون من مريض قبل الحرب العالمية الثانية شيئاً من هذا القبيل ؟

- لا ..

- لماذا تدهش عندما أطلب منك أن تأتينى بخريطة جيناتك ؟



- هل أمرها ميسور يا دكتور ؟
- بالطبع ، ونفقاتها أيضاً ..
- كيف يرسومونها ؟
- هذا أمر يجب ألا يشغلك ، وهو أيضاً لا يشغلنى ، المهم أن تأتىنى بها ، وعن طريقها سوف يسهل لى أمر العلاج .
- هل هناك مكتب أو مركز معين ترى أنه الأفضل ؟
- كلها عندى سواء .. وقد برع البعض لا فى رسم خريطة واحدة ، بل عمل ما يمكن أن يكون بمثابة أطلس ، البعض يطيب له أن يستخرجه ويحتفظ به ، ويصحبه للطبيب ، مع بطاقة صغيرة تحتوى على تاريخه مع الأمراض ..
- ويضحك ذلك الذى سيقصد الطبيب ، ويقول :
- أطلس جغرافى ، وكتاب تاريخى معاً ، كم تقدم الطب فى هذا الزمان الجديد
- نعم ، لدرجة أننا نرثى لأطباء عصر ما قبل الجينات !
- توصل العلماء - "مندل بالذات"- إلى أن الأجسام الحية تتكون من خلايا ، وظن هؤلاء العلماء ، أن الخلية هى أصغر شئ ، فى جسم الإنسان .. وإذا به يكتشف أن الخلية عالم واسع ..
- أدرك ذلك من خلال الميكروسكوب ..

رأى الإنسان الخلية بعد أن كان يتصورها مجرد كرة صغيرة، دقيقة، لكن ها هي واضحة أمام بصره، ويدخلها أشياء أصغر .. اكتشف الإنسان أن بداخل الخلية ما هو أصغر منها .. هناك نواة، وهي (بيضوية الشكل، ولها جدار مرن .. هل تسألون؟ هل يمكن أن نرى خلية؟

نحن نراها كل يوم ..

أنت ترى البيضة وتسلقها ، وتأتى بها ، وتأكلها .. تؤكد ستدهش إذا قلنا لك إن البيضة خلية .. كبيرة !

- ماذا؟! ماذا عن بيضة النعام ، مثلاً؟

- هي خلية .. بل أكبر خلية فى الدنيا ..

- صدق من قال إن العلم تقدم بشكل كبير! .. وإن هناك المزيد على الطريق ..

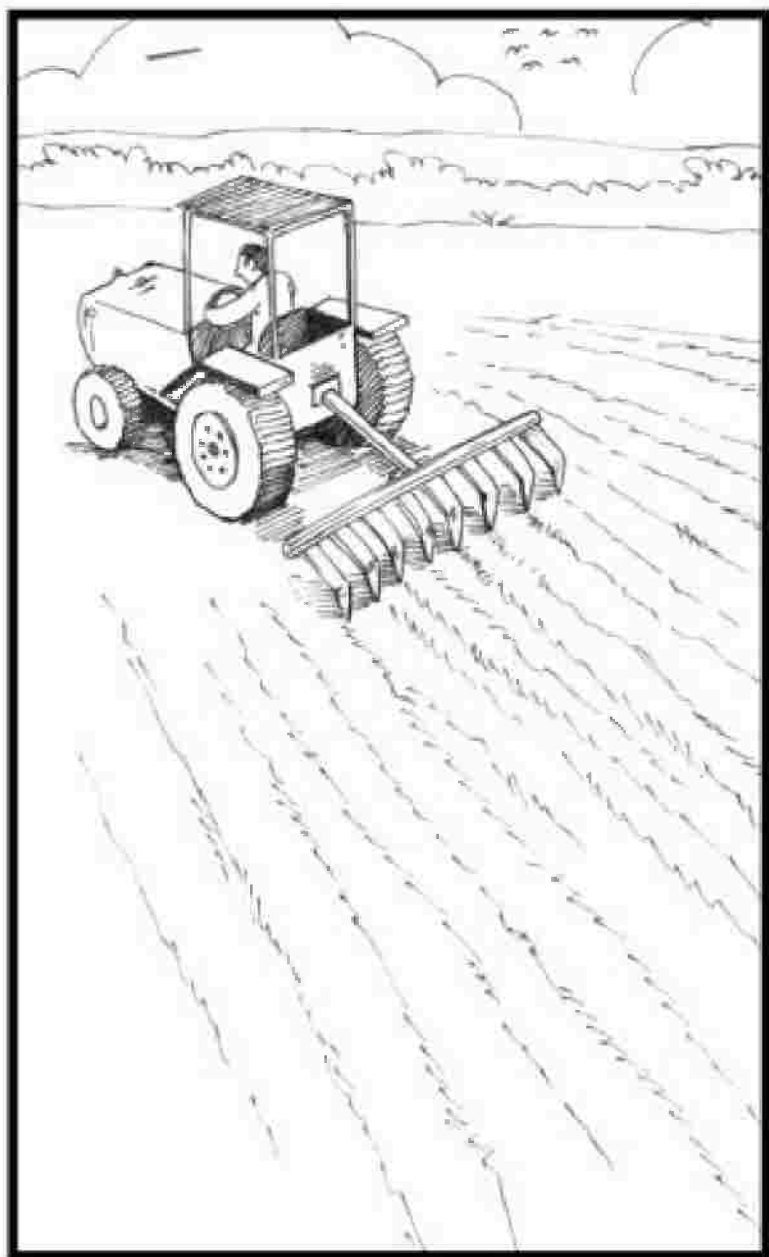
مثل هذا الحوار سيدور بين المرضى وبين أطباء المستقبل ، الذين سيكونون أفضل وأكثر قدرة على علاج مرضاهم ، كما أن أطباء اليوم تقدموا عن كانوا فى الماضى .. زرت صديقاً منهم فى "بليتر" ..

قلت لصديقي الطبيب :

- هل من جدوى حقيقية لتجارب الوراثة هذه ؟

ابتسم ، وقال :

- تدور فى بلادنا مناقشات واسعة حول ضرورة أن نكتفى ذاتياً من



القمح ..

- أعرف ذلك .. هي سلعة استراتيجية لا يجب أن تعتمد فيها على الاستيراد من الخارج .. لابد وأن ننتجها من أرضنا ..

- رغبت أمريكا في أن نجعلنا نركع حين رفضوا مدنا بالقمح ، ووقفت سفبتنا كليوباترا في ميناء نيويورك تنتظر شحنها بقمح دفعنا ثمنه .. لكن العمال بإيعاز من إسرائيل رفضوا نقله للسفينة وقامت الدنيا ولم تقعد ..

- وكيف حُلت الأزمة ؟

- عبد الناصر حلها جعل العمال العرب يتوقفون عن شحن السفن الأمريكية في موانئنا فاضطروا لنقل القمح من على الأرض إلى السفينة كليوباترا .

- لتواصل حكاية القمح والورثة ...

- كان هناك قمح ضعيف الجينات كثيرة حياته في السنبلة ، وآخر قوى العود وحياته قليلة .. الأول يخشى عليه من العواصف ، والثاني يعاب عليه قلة إنتاجه .. أمكن إنتاج قمح قوى الساق كثير الحبات ..

صديقي الطبيب انتقل من الحديث عن جينات البشر إلى القمح . الأمر الذي أدهشني .. وعندما أبدت له هذه الملاحظة ، ضحك ، وأضاف :

- ساهمت التكنولوجيا في مجال الزراعة بشكل كبير ، يعتبره الكثيرون طفرة ، وثورة ، وكفى لإثبات ذلك أن نضع أمامكم ثلاثة أرقام ، تتعلق بالمحاصيل المعدلة وراثيًا أي عن طريق الجينات.

* الرقم الأول : هذه المبيعات للمحاصيل كانت ٧٥ مليون دولار سنة ١٩٣٥.

* الرقم الثانى : أصبحت عام ١٩٩٨ ملياراً ونصف المليار أى الضعف .

* الرقم الثالث : يتوقع لها أن تزيد إلى ٧٥ ملياراً عام ٢٠١٠ وفى سوق الدواء القائم على الجينات.

* سنة ١٩٩٩ كان ثمنه ٢.٢ مليار دولار.

* ارتفع سنة ٢٠٠٤ إلى ٨.٢ مليارات دولار، أى ارتفع إلى الضعف سنوياً ، أى تضاعف أربع مرات فى أربع سنوات .

كنت أستمع لصديقى الذى تنقل ما بين الطب إلى القمح والنباتات ، ثم تحدث عن الاقتصاد والمستقبلات، وتجاوز هذا إلى الدواء والجينات مما جعلنى أسمع دون مقاطعة ، وبدون تدخل من جانبى أو سؤال .. هو يفتح لى الأبواب؛ لكى أعيش فى مستقبل الأيام .. وبما أرى هذا أفضل بكثير من أن أتحدث عن أمجاد جدودى بناء الأهرامات، التى يصعب أن تكون جيناتهم قد انتقلت إلى عبر عصور جاء فيها اليونان، والرومان والفرس، ومن قبلهم الهكسوس والحيتيون والعرب، الذين تغير معهم الدين واللغة والجينات بالتأكيد، وقدم الذين علينا بعدهم القرنجة، والتتار، والعثمانيون .. ثم الفرنسيون والإنجليز .. ها قد انزلتُ للحديث عن الماضى ومرارته .. لذلك لن أطيل فى الحديث عن الماضى. وقد أصبح عالمنا قرية على حد تعبيرنا الجديد، واختلطت الأثساب ..

تُرى ماذا يحمل لنا المستقبل ؟

سوف يحمل أطلس الجينات، جغرافيتنا وتاريخيتنا، ولن يدهشني قط ما يطلبه حين يسألني أن أعود إليه ومعنى خريطة الجينات .. ربما يستطيع الواحد منا أن يرسمها بنفسه لنفسه .. كما يفعل مريض السكر وهم قادرون على أن يغرسوا إبرة الأنسولين في أجسامهم !

المصانع الحديثة

كانت الأسرة والمدرسة والنادى يسمونها :

- خديجة " المخ الكبير " ..

وهي تضحك لذلك ، وإن كانت لا تستريح له ، والغريب أنها لا تدرى لذلك سبباً أو سراً ؛ لأنها تسمية وصفة يتمناها الجميع .. عندما تواجه الأسرة مشكلة فى البيت، يتوجهون إليها، لكى تجد لها حلاً ، وفى المدرسة يرجعون إليها ، ويسألونها رأياً فى كل شئ ، حتى فى اقتراح اللعبة التى يمارسونها ، ويقولون بما تشير ..

ذات يوم ، قرأت فى الصحف عن مصنع مقام بجوار مدينتها ، ودفعها حب الاستطلاع إلى المطالبة برحلة إليه ، وزيارة له ، إذ إن ما قرأته يشير الاهتمام والدهشة ؛ لأنه يتصل بأمر له صلة بها ، وبالقرب الذى أطلقوه عليها .. هو مصنع يتعلق بالمخ ، وعلى ذلك هو جدير بالزيارة فى أقرب فرصة ..

بادرت خديجة بطرح الأمر على أسرتها ، لكن الوالد والوالدة لديهما أعمال تشغلها عن مثل هذه الرحلة .. ورأت أن تعرض الموضوع على المدرسة ، وحاولت بكل السبل أن تقنع لجنة الرحلات بضرورة إدراج هذه الرحلة ضمن برامجها ، وسرها كثيراً أن تستجيب المدرسة لطلبها ، وتحدد الموعد وكعادتها عادت إلى المعجم . وذاتة المعارف ، وعلم وظائف الأعضاء فى المكتبة .. وابتسمت وهى تقرأ فى المعجم :

(مخمخ) العظم أخرج منه مخه .

(المخ) معظم المادة العصبية فى الرأس .. أو هو الدماغ كله إلا المخيخ .. والقنطرة .. والبصلة .

و(المخيخ) : الجزء الخلفى من الدماغ وهو مركز التوازن الجسمى .

وضحكتم ! لأنها لم نفهم الكثير ، وقالت لنفسها :

- " لمخيخ " فى هذا الكلام .

مادامت هذه الكلمة " فصحي " ، بينما نظنها عامية ، يطيب لى أن أستخدمها ، وأيضاً أتباهى بها فى حصة اللغة العربية ، ومعلمنا يشجعنا على ذلك .. وأذكر أن زميلاً لنا فى أول حصة له معنا سأله :

- مامعنى كلمة الطريف التى تستخدمها كثيراً ؟

قال : الطريف ، هو الجديد ..

وبدأ يكتب على السبورة عبارة (شرح الطريف) فى كافة حصصه لدينا .

ما قرأته خديجة عن المصنع ، أثار اهتمامها ، خاصة وأن صاحبه قال فى تصريح له :

- لسنا مصنع دواء لعلاج الأمراض ، لكننا نتنتج أشياء يحتاج إليها كل الناس ، وأصبحت فى هذا العصر ضرورة ولا يمكن لأحد أن يستغنى عنها ..

كان هذا كلاماً جديداً ..

- ما هذا الشيء الذي هو من هذا القبيل ؟

سألت، ولم يرد عليها أحد بإجابة " شافية " .. وابتمت للكلمة ،
فهي تدخل في نطاق الموضوع .. أرجأت كل هذا إلى أن تزور المصنع ، ومنه
ستعرف .. وكان من حسن حظها أن تجول المهندس بنفسه ، ليقول لهم في
مستهل الزيارة ..

- أنتم في مصنع " جديد " بكل ما تعني الكلمة .. فهو مثلاً يدار
بطاقة كانت قسراً على إنتاج الطاقة الكهربائية .. أصبحت ميسورة لنا في
مصنعنا الصغير .. هل تعرفون معنى " الصناعة الثقيلة " ؟ أو الإنتاجية ؟
تأثرت الأصوات : لا ...

- المقصود بها أن المصنع الثقيل يصنع " مصنعا " ..

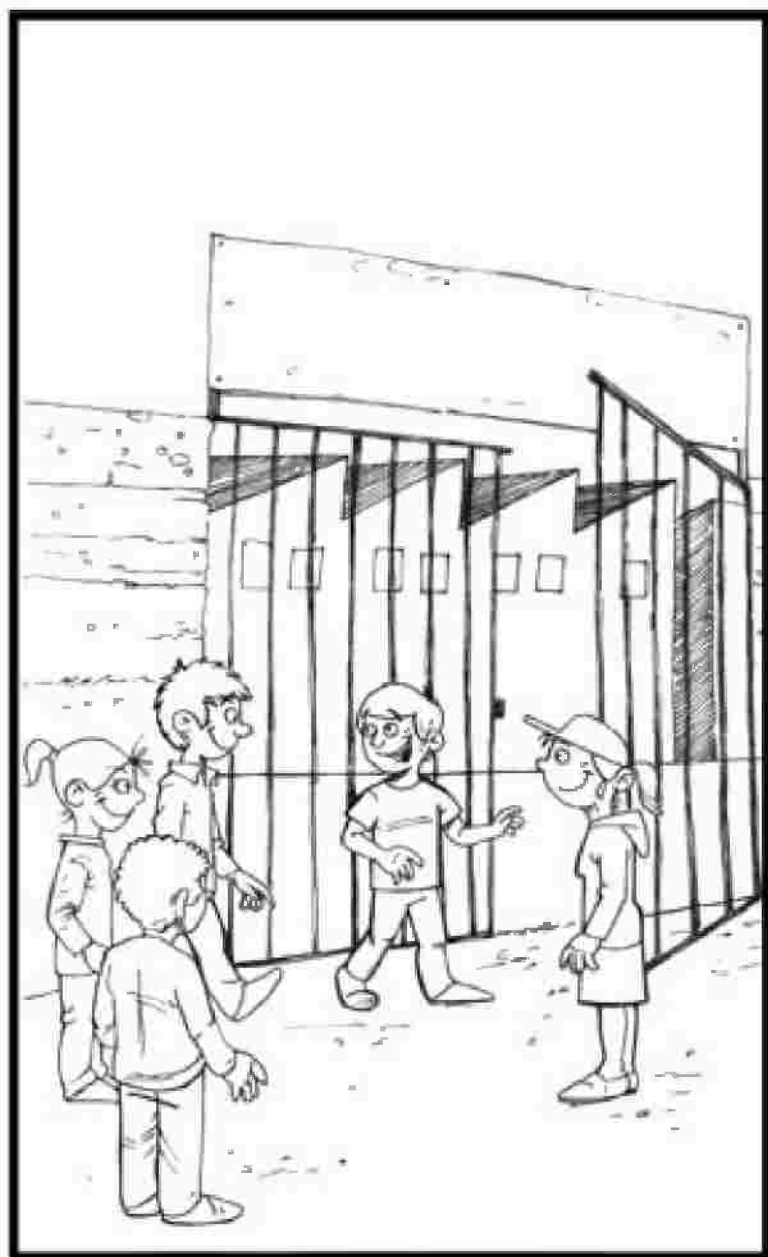
مصنع النسيج ينتج أقمشة ، ومصنع مصابيح الإضاءة ينتجها ،
والسؤال : ماهو المصنع الذي ينتج مصنعا ؟

سألت خديجة : أهو المصنع الذي ينتج مصنعا ؟

- نعم ..

في القرن العشرين ، الماضي ، كانت هناك محطات ذرية ضخمة
تنتج الكهرباء ، أصبح ميسوراً الآن استخدام الطاقة الذرية في صناعات
عديدة ..

- أليست هذه المحطات خطيرة ويمكن أن تسبب في كوارث كما حدث في
تشرنوبل ؟



- كانت مقلقة مزعجة ، لكن العلم يتقدم .. واستخدام الطاقة الجديدة لايد منه بعد أن نضرب إلى حد كبير الفحم والبتروئل ..
- وماذا تنتجون بالطاقة الجديدة ؟

نتنتج جديدًا .. بعضه نسميه "مكملات غذائية" .. أصبح الناس يأكلون غذا غير صحي ، ولا تكتمل فيه كل العناصر التي يحتاج إليها الجسم؛ لذلك نقدم ألوانًا من الشراب والأقراص لكي يكتمل الغذاء .. كما نتنتج جديدًا في مجالات عدة نحتاج إليها خلايا الجسم، مثلاً : الآلة التي نقف عندها نتنتج أقراصًا ليس لها آثار جانبية .. مهمتها أن توسع وتكبر وتعمق مخ الطفل .. هتفت بعض أصوات : ماذا؟

كانت خديجة - المخ الكبير - أكثرهم اهتمامًا بما قال .. تبادل زوار المصنع النظرات، وكلها دهشة تصل إلى حد الدهول، إذ كيف فكرت العقول في تكبير العقول وتعميقها وتوسيعها ؟ .. هل هذا ممكن ؟ أهو ميسور ؟
- بالطبع ، لم نتنتج هذه الأقراص إلا بعد دراسات واسعة ، وعميقة لهذه الجوهرة، أعظم ما خلق الله تعالى ..

سألته خديجة : هل توصلوا إلى أن العقول التي تولد بها الناس في حاجة إلى هذا ؟ أليست كافية لهم ؟

- التقدم البشري يؤكد هذا .. كان ضئيلاً وضعيفاً .. لقد احتاج إلى ما يزيد على العشرين قرناً ليصل إلى نفتيت الذرة وصناعة القنبيلة الذرية .. تأخر كثيراً جداً في السفر إلى الفضاء .. أيضاً وضع أقدامه على القمر .. ولم يصل إنسان بعد إلى المريخ، ولم يصبح السفر بين الكواكب ميسوراً



للناس .. ولاشك أن وراء ذلك غير عدم قدرة العقل على المزيد من الإبداع والاختراع .. مثل آخر ، هو ما تتناقلونه في فخر واعتزاز ، في تقديرنا وعلماء النصف الثاني من القرن الحادى والعشرين أن ظهور "زويل" كان يجب أن يكون في القرن العاشر ، وليس القرن العشرين .

.. هل استوعبتم الفكرة ؟ !

وكبرت خديجة - المخ الكبير - واستخدمته في إنشاء مصنعها المتقدم . وكان المهندس الذى توصل مع العلماء ومع الأطباء ، إلى أقراص تنسبة المخ ، قد أحيل للمعاش ، عندما شاهد مصنعاً يقوم مقابل مصنعها القديم ، وفى مواجهته تماماً ، وخطر له يوماً وهو يزور زملاءه الذين مازالوا يواصلون العمل ، ويزيدون من إنتاجهم بعد أن لقي قبولاً واسعاً وعريضاً ..

وتسأل المهندس : ترى أى شىء يصنعون ؟ اتصل بهم ، وكانت مفاجأة له أن عرف أن صاحبة المصنع الجديد ، ومديرته ، هى " المخ الكبير " ، التى زارته قبل سنوات طويلة .. وعندما ذهب إليها سألها :

- ماذا تنتجون فى مصنعكم هذا ؟

- نتج شيئاً مختلفاً تماماً عما كنتم ومازلتم تنتجونه وتفرقون به الأسواق ..

- أى شىء هو ؟

- نتج أقراصاً ومشروبات ، ننمى لدى الإنسان مشاعر الحب ، وأحاسيس المودة التى يجب أن تسود بين البشر ..

هتف : ماذا ؟

قالت : أعرف أنك سمعتنى جيداً ..

كان الزوار الصغار يديرون الفكرة فى رؤسهم .. وساد القمت بعض الوقت ، إلى أن رفعت خديجة صوتها معقبة على هذا الذى تسمعه ..

- كنتم تريدون أن تتم صناعة القنبلة الذرية فى القرن الثامن أو التاسع ؟

- ربما قبل هذا .. وذلك لكى نصل اليوم إلى قنبلة تتجاوز تلك التى ألقيت على هيروشيما ونجازاكي عشر مرات.

هتفت خديجة : ماذا ؟ ! ألم يكف ما حدث من دمار ، وتريدون مضاعفته عشرات مرات ؟ ! .. أى عقول هذه التى تفكر بهذه الطريقة وتريدون لها أن تكبر وتنمو وتتسع وتعمق ؟ ! ..

- لا تنظرى إليها من زاوية الدمار فحسب ، بل من الجانِب الإيجابى .. كما حدث لمصنعنا هذا .. لقد توقف استخدام الذرة والقنابل الذرية فى الحروب التى يسمونها محدودة ، ونستخدمها لخدمة السلام.

مطت خديجة شفيتها ، وقالت :

- مصنعكم هذا لا يعجنى .. بل إنه يزعجنى .. أنتم تنتجون أقراصاً للمخ لينمو فى هذا الاتجاه المزعج ، عندما أكبر سأقيم فى المقابل لكم مصنعاً متقدماً تقدماً حقيقياً يفيد الإنسانية والبشرية .. لست فى حاجة إلى منتجاتكم .

- لكننى لا أصدق ما تقولينه .. إنها مجرد حكاية يمكن أن ترويتها للأطفال؛ إذ لا أظن أن مثل هذه الأقراص تستطيع أن تزرع فى النفوس هذا الذى تقولينه .. إنه شئ، يتجاوز قدرات العقل ..

- كان .. أما الآن ، فقد حان الوقت لكى تفكر الإنسانية فى صالحها .. 'المخ الكبير' يحفزنا إلى مثل هذا .. ولا أظنه كان فى حاجة إلى منتجاتكم التى يعتمد منها بالمليارات وكسبتم منها الكثير ..

- ألا تكسبون فى صناعتكم هذه ؟

- تكسب، لكن المال ليس كل شئ .. أرباحنا المعنوية تتجاوز المادية .. ليس بالعقل وحده يعيش الإنسان، بل وبالمشاعر الحلوة، والأحاسيس الطيبة، كل إزاء الآخر ..

وملعونة هى العقول التى أنتجت القنابل الذرية والأسلحة الكيميائية .. وأهلاً بعقول جديدة تمعن النظر فى أمر ما يغيد الإنسان ولا يضره .. ويقدر ما تقبل على الأولى ، تباعد ما بينها وبين ضرر الثانية ..

- هل تتوقعون لمنتجاتكم الرواج ؟!

- لقد راجت فعلاً ، وأصبح مصنعك غير قادر على منافستنا .

التفاحة الماسية

ذهبت إلى طبيب ، سألتني :

- مما تشكو ؟

- أعرف أنني سوف أسقط مريضاً ، في وقت قريب ! هتف : ماذا ؟

- بداية أريد أن أقول لك : لست مريضاً بالوهم ، مثل صاحبنا الذي أضحكتنا عليه الكاتب الفرنسي موليير.

نظر إليّ ، وقالت عيناها : إنه يراني مجنوناً ، وقال :

- هل جئت لكي أعالجك من مرض سوف يصيبك ! قلت في هدوء :

نعم ..

- اذهب ، وانتظر إلى أن يجيء ، وساعتها ، تعال .

- لا لا .. لن أنتظره .. أريد ألا أصاب به ..

- ما هو هذا المرض الذي تتحدث عنه ؟

- أي مرض ؟

- كيف عرفت به ؟

- أصيب به جدي ، ثم أبي .. وقد ينتقل لي بالعدوى .

- من قال إنك سترثه عنهما ، أو تصاب به ؟

- الجبنات .. تقول إنى سارته .
- هز الطبيب رأسه ، وسأله :
- تعنى أنك تريد أن تنقيه ؟
- الأمر أبعد من ذلك .. وأكبر ..
- أنت تريد أن تطبق " الوقاية خير من العلاج " .
- بل أريد ألا أمرض .. مطلقاً !
- هتف الطبيب : ماذا ؟
- يا عزيزى الطبيب ، ما الذى يسبب لنا المرض ؟
- الجراثيم .. الفيروسات .. أن يقع لنا حادث .. أن يختل عمل جهاز .. أن تصاب خلية بجنون .. أنت تعرف ذلك أكثر منى .. كيف نتفاداه ؟
- ليس عندى دواء لمرض لم يحدث بعد ..
- أكتب لك تذكرة تقول : درهم وقاية خير من قنطار علاج .
- ضحكت .. وقلت له :
- هل تسمح لى بأن أحكى لك حكاية ؟
- كان واضحاً أنه ضائق بى ، قال فى أدب :
- لا وقت عندى لسماع الحكايات !

قلت : لقد دفعت لك أجراً لتكشف علىّ ، ولم تفعل ذلك .

- واضح أنك تريد أن تتسلّى .. ولا بأس .. المريض الذى بعدك اعتذر ..
أنا مستعد لأن أسمع حكايتك ..

اتخذ الطبيب وضع الملك شهريار ..

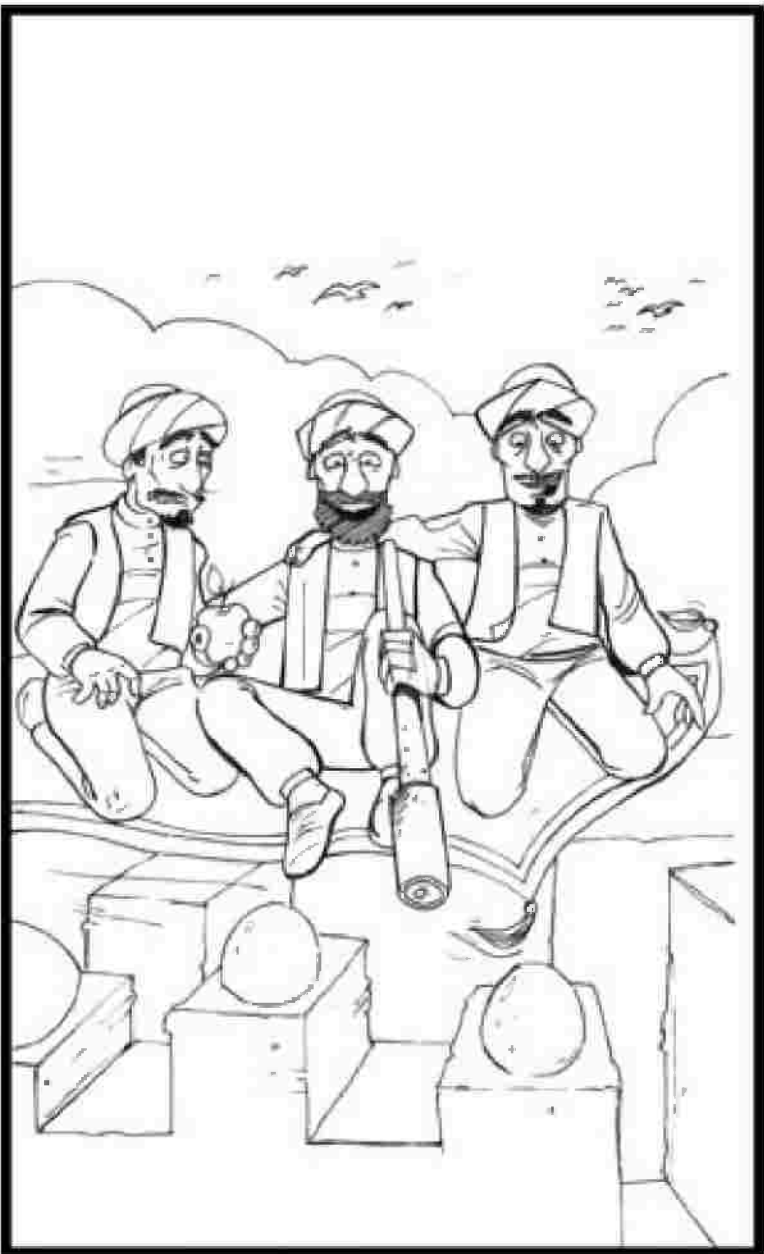
وكأنما ظن أنى سوف أكون " شهريار " .. قلت له :

- لن أحكى لك التفاصيل فأنت تعرف الحكاية تقول الحكاية الشعبية: إن السلطان بعث بالأمراء الثلاثة - أبنائه - ليعود كل منهم بشئ . شئ ، والذي يتفوق يكون ولى العهد ، ويتزوج من ابنة عمه ، التى هى أجمل فتاة فى الدنيا ، وسافر الأمراء ، واتفقوا على أن يلتقوا معاً قبل العودة إلى أبيهم ، واختاروا مدينة قريبة منه .. وفى هذا اللقاء ، كشف الأول عما عثر عليه ، وهو منظار ترى من خلاله لأميال بعيدة ، وحصل الثانى على بساط الريح ، والثالث على التفاحة الذهبية ، التى تشفى كل الأمراض .. وجربوا المنظار ، ليروا الأميرة فكانت مريضة وتكاد تودع الحياة ، فركبوا بساط الريح ، وأعطوها التفاحة الذهبية ، لتشفى من مرضها .. وكان السؤال: من تتزوج ؟

ويمكن الإنسان من صنع التلسكوب ، والطائرة ، لكنه لم ينجح فى صنع الدواء الذى يشفى من كل داء .

ولا توصل إلى " ماء الحياة " ..

ولم يوفق علماء الدواء والصيدلة والطب إلى اكتشاف علاج ناجح



للكثير من الأمراض .. ومنها - على سبيل المثال - الإنفلونزا!

والسؤال : إلى متى تنتصر هذه الجراثيم الصغيرة الضئيلة على الإنسان الذى تقدم كثيراً فى العلم والتكنولوجيا؟! إنها صغيرة إلى الحد الذى قد لا نستطيع رؤيتها بالمجهر .. لم نتعرف عليها إلا منذ وقت قريب ؟! أما من أمل فى الوصول إلى ما تسميه الحكايات " التفاحة الذهبية " ؟

قال : الإنسان - منذ وجد على الأرض - يحاول أن يجد لكل داء دواء .. كما أن للطبيب مكانته المرموقة؛ لأنه قادر على معرفة مكان الداء ، ووصف الدواء الذى يخفف من آلام المريض ، ويساعده على الشفاء .. وكانوا يتصورون أن للطب إلهاً ، وأن الطبيب ساحر ولقى منهم كل احترام وتبجيل .. لمجرد أنه يقترح الدواء .

سألته : من أين يأتى بالدواء ؟

قال : سيجيب أحدهم ضاحكاً: من الصيدلية .. تعرفها ؟

هم فى ألمانيا يسمونها " أبونيكا " ، وقد أخذوا هذه الكلمة من اسم بلدة مصرية فى أسيرط، اسمها " أبوتيج " ..

وكانت أيام مصر القديمة والفراعنة هى المركز الرئيسى لمخازن الأعشاب التى يستخرجون منها الدواء .. وجدنا العربى ابن البيطار كان أعظم العشابين فى التاريخ أظنك أخذت من وقتى ما يزيد على ما دفعت ؟ ..

قلت : ما زالت عندى حكاية أخرى ..

- أريد يا دكتور - أنت وأنا - أن نحقق حلم ألف ليلة وليلة.

والحكايات الشعبية، أى أن نخترع " التفاحة " التى يطيب لى تسميتها أو وصفها بالمسيسة؛ لأنها ولاشك تساوى وزنها وحجمها ماساً ..

كان الطبيب قد ضاق بزياره ضيقاً شديداً . ولم يعد أمامه إلا أن يتخلص منه بطرده من العيادة .. غبر أن المريض قد قرأ أفكاره ، فقال له :

- لا تحاول أن تحول بنى وبين البقاء معك إلى أن نصل إلى كلمة سواء فى هذا الموضوع .. مد الطبيب يده إلى الجرس ليستدعى الممرض ، وهنا جذب المريض يده بقوة .. ورغب فى أن يستخدم التليفون للاتصال بالشرطة، فاعترض المريض طريقه باليد .. وتعدد الموقف .. قال الطبيب :

- أنت تعطلنى عن عملى ، وتضيع وقتى ، وهناك مريض ينتظرون .. رد المريض : بل أنا أفتح لك الطريق إلى مجد ما بعده مجد، ذلك أنك تستطيع أن تخلد شخصياً فى تاريخ الإنسانية لو أنك حققت وجود هذه التفاحة !

- إنها مستحيلة ..

- ألم نحقق العين السحرية التى تفتح لنا الأبواب عندما نظهر أمامها ، وكانت من قبل صيحة مضحكة، تقول: " افتح يا سمس " ؟ ثم ألم نحقق بصمة الصوت فى فتح الخزائن ؟ ! بل وبصمة العين للوافدين على المطارات لحماية بلادنا ؟

استسلم الطبيب إلى حد ما بعدما سمع ضيفه ، إذ فكرة الخلود، واستثمار مثل هذا الدواء الذى يشفى كافة الأمراض ، سوف يجعل

منه مليارديرا خلال فترة قصيرة ، وبذلك يرتاح من التعامل مع الأمراض والأوجاع ؟ إنه يعالج القلب بدواء يسى ، للمعدة ، ويشفى مريضاً بالجهاز التنفسى ويغرض الكلى ، إنه .. إنه ..

قال المريض واضحا :

- الفكرة رائعة ، لكنها أشبه بتعليق الجرس من قبل الفئران فى رقبة القط ، كيف السبيل لتحقيقها بالله عليك ؟

- بالعمل والمثابرة .. صاحب قصتنا فى عمل له جعل صاحب القط يعلق بنفسه الجرس فى رقبة القط ..

- كيف ؟

- مكافأة له على صيده للفئران ..

ضحكا معا ، ها قد تحققت الفكرة المستحيلة.

سأله الطبيب:

- من أين تبدأ ؟

- هل بدأت تعتق الفكرة ، وتريد أن تعمل لها ؟

- نعم ، لا بأس بها .

- علينا أن نلتقى خارج العيادة .. ما رأيك فى أن نجتمع بالنادى ؟

- هذا أفضل كثيرا .

- ولك أن تستعين بمن تشاء .
- بل أرجو أن تبقى الفكرة سرّاً بيننا .. وربما نستعين بآخرين مستقبلاً .
- لا مانع عندي مطلقاً .. المهم أن تكون مقتنعاً ، ومؤمناً ، ومشاركاً ، ولا تتوقف لدى منتصف الطريق ، هل تعدنى بذلك ؟
- أعدك .
- فلنجدد أسباب الأمراض ، وبدلاً من أن تضعفنا وتقتلنا علينا أن نقتلها قبل أن تفعل بنا ذلك ولنجدد مرعداً قريباً للشفا .. اتفقنا ؟
- اتفقنا .
- ليكن شعارنا هو : فلنعش الإنسانية قادرة على اختراع التفاحة الماسية!
- غادر المريض العيادة ، وتنفس الطبيب الصعداء ، وراح يستقبل مرضاه ، إلا أن الفكرة شغلته عنهم ، لأنه يديرها في رأسه ، رغم صعوبة تحقيقها ، بل استحالتها ، وهو يعرف ذلك يقيناً كطبيب! إذ هي لا تستقيم مع الواقع .
- وعندما عاد إلى بيته مرهقاً ، ورغب في أن يدخل إلى فراشه لينام ، إلا أن زوجته وجدته كالتائه ..
- ماذا بك ؟
- لا شيء ..

- أنت سرحان .. فبما تفكر ؟

- جاني مريض ، اليوم ، يريد أن أشاركه في اختراع أو ابتكار دواء يشفي كل الأمراض .

هتفت : فكرة جنونية ، أجدى على الإنسانية من القنبلة الذرية ، تستحق عليها جائزة نوبل .. ثق أنى سوف أساعدك عليها وأساندك من أجل الوصول إليها .

عاد الطبيب يبدى اهتمامه بمرضاه وبالعيادة ، ذلك أنه أدرك بعد حين أن هذه الفكرة تخالف فعلاً طبيعة الحياة ، وكافة أمورها .. وإن كانت بين حين وآخر تقف إلى رأيه.

- لقد تحققت أشياء كانت مستحيلة .. ويرد على نفسه : يستحيل علينا تفادى الحوادث .

وما من سبيل لتفاديها ، ولن تستطيع أى تفاحة ذهبية ، أو حاسبة ، أن تجعل العظام والكسور نلثم ، وهى لن تستطيع القضاة على كافة الجرائم والفيروسات فى كل الدنيا .. كما أن علم وظائف الأعضاء يتناقض مع مفعول هذه التفاحة ، التى هى مجرد خيال..

وعندما اتصلت أنا المريض بصديقي الطبيب أسأله مرعداً نلتقى فيه بالنادى ، سألنى :

- من أجل أى شىء ؟

ضحكت وقلت له :



- من أجل التفاحة الماسية .

ضحك ورد على :

- لا وقت عندي لمثل هذه الحكايات الخرافية التي ما عاد الأطفال يصدقونها.

وأعاد الساعرة إلى مكانها .

تسألونني : هل شعرت باليأس ؟

أقول لكم : لا، قد يستطيع طفل من قراء هذه الحكاية تحويلها إلى حقيقة واقعة في مستقبل الأيام .. إنها فعلاً حكاية قد تحدث غذا !

قال الصديق الطيب :

- أخشى ما أخشاه أن أحقق هذا الحلم للناس ، وأقدم إليهم التفاحة الماسية فعلاً، وإذا بهم يحولونها إلى حبات عقد يدور حول رقابهم .. أو ربما يفكرون كما فعل نبوتس : لماذا هبطت وسقطت ؟! وقد يتقنون الإنسانية منها بأكملها، طازجة، ولا يعودون بزرعون أشجاراً ثمرها!

الوجه الجديد

قال صديقي الصغير " وائل " :

قرأت في صحيفة أن السينما تحتاج إلى وجوه جديدة، سارعت إلى المرأة، أطلع إلى وجهي، وأسأل نفسي : هل هو جديد ؟ هل يصلح للسينما ؟

رجت أعلى في وجهي، وأحركه إلى اليمين وإلى اليسار، وأمعن النظر فيه، وتذكرت أن عندنا امرأة مكبرة، أتيت بها، ورجت أعواد النظر، وأسأل نفسي : ما رأيك ؟ أليس هو وجه نجم ؟! .. هل يقنع المخرجين ؟ وهل أنا شخصاً مقتنع به ؟ !

قادتني المرأة المكبرة إلى امرأة ثالثة ، ذات ثلاثة وجوه ، تلفتها أسي هدية في عيد ميلادها ، لهذه المرأة خلفتان تفتحان على ثلاث مرايا؛ واحدة عريضة في المواجهة، واثنان على الجانبين .. استخدمتها ولم أكن منشها إلى أن أبى يرقبني من بعيد ، ونباح ما أفعله .. ارتفع صوته يسألني :

- ما هذا الذي تفعله ؟

ارتبكت - توترت .. انزعجت .. ورأيتني أضحك لكى أقالك نفسي .
ولأجد رداً مناسباً ، قلت :

- لا شيء ..

- أنت تنتقل بين المرايا ، هل هناك ما يؤذى عينيك ؟



- لا، فقط أتطلع إلى وجهي.

سألني : هل من جديد فيه ؟

ورأيتني أفهقه ، وأنا أجيب في صراحة :

- أنا أبحث فيه عن جديد فعلاً ..

- هل وجدته ؟

- لا أظن ، فقد أعلنت إحدى شركات السينما عن حاجتها إلى وجوه جديدة ، وتوسمت أنني ووجهي نصلح للظهور على الشاشة ..

ابتسم ، وسأل : وكيف كانت النتيجة ؟

- لم أجد وجهي جديدًا ، لأنني أحمله منذ ولادتي ، وعمره الآن يقترب من اثني عشر عامًا ..

ضحك أبي ، وراح يشير عليّ بأن أعيد المرايا إلى مكانها .. وهو يداعبني قائلاً:

- جميل أن تتحمل التطلع إليه في كل هذه المرايا ، لتدرك كم يعاني من حولك من رؤيته بشكل مستمر .

نسيت ، أو تناسيت ، أمر وجهي ، وبعد أن أفهمني أن المقصود هو أن يكون الوجه جديدًا على الشاشة ..

لكن شيئًا ما يذكرني بهذه الحكاية العابرة ، مثلما حدث حين أشارت

زميلة لى إلى صورة لحمة سينمائية صبوحة الوجه ، باسمة الشفر ، ضاحكة السن ، وقالت لى :

- تصور أن عمرها يزيد على الستين عامًا ؟

- هتفت : ماذا ؟

- قالت فى هدوء وصرح : شدت وجهها !

لم أفهم العبارة ، فقد كانت أول مرة أسمعها ، وتساءلت فيما بينى وبين نفسى عن معناها ، قبل أن أستفسر منها عن المقصود ، وكيف يمكن أن " يشد " أحدهم وجهه.. قالت الطريقة الهادئة نفسها :

- عملية تجميل ..

كنت أريد لها أن تسترسل فى الشرح ، وتتكلم بوضوح فى تفاصيل الموضوع ، وكان واضحًا أنها لا تعرف الكثير عنه ، وإن أضافت ..

- الأطباء يقومون بها .. فى سهولة ويسر ..

سألتها : هل يباح للإنسان تغيير معالم وجهه ؟

- هى لم تغير شيئًا ، فقط نخلصت من الغضون بحكم السن ..

أبديتُ بعض الدهشة ، قالت :

- الظريف أن هذه الفنانة بالذات قامت فى شبابها بتمثيل دورين فى فيلم قديم- دور شابة صغيرة كانت فيه على وجهها الطبيعى الجميل ، ثم

دور عجوز واحتاجت إلى " المكياج " لتبدو جذّة، طاعنة في السن ..

- هذا مقبول؛ لأنها ستعود كما كانت بعدما تزيل المكياج والأصباغ من وجهها .. هل يمكنها أن تفعل هذا بعدما .. " شدت " وجهها كما تقولين ؟

- لا لا .. هي تريد أن تبقى " شابة " و " جميلة " .

ضحكتُ وقلتُ : هي " تغش " الناس بما فعلته .

- هناك من يبيع هذا، ولا يرى فيه شيئاً أو عيباً، المشكلة فيمن يغيرون ملامحهم بالكامل.

مرة أخرى رأيتني أهتف في دهشة : ماذا ؟ !

- ألم تر قبلًا من تلك الأفلام التي يلجأ فيها المجرمون إلى هذا؛ لكي يهربوا من الشرطة والعدالة ؟

- أذكر أنني رأيت شيئاً من هذا القبيل ، لكنه لم يستوقفني .. مرتكبو الجريمة يضيفون إلى جرمهم جريمة التخفي ، وليس ذلك غريباً عليهم .

وطردتُ الموضوع من رأسي، وظننتُ قد تلاشى .. وعاد الموضوع يلح عليّ من جديد، وأنا أقرأ عنواناً يمتد إلى خمسة أعمدة في الصفحة الأولى لصحيفة كبيرة، العنوان يقول :

" جدل واسع في أوروبا حول مشروعية زرع وجه جديد " .

جعلني هذا الخبر أستعيد في ذهني كل ما مرّ بي حول " الوجه الجديد " .. و " أشد " وجهي بنفسى ، دون حاجة إلى عملية جراحية يجريها أطباء

التجميل ، ولا أظننى أصبحت بذلك أكثر وسامة ، بل لعل رعباً ارتسم على وجهى ، وأنا أكاد أصرخ :

- هل وصل بنا الأمر إلى " زراعة الوجه " ، بدلاً عن زراعة الذرة والقمح والشجر و .. ؟

حملت الصحيفة إلى أبى ، أشير إلى الخبر ، قرأه متمهلاً ، وبعدها سألتنى :
ما رأيك ؟

- لم أفهم ، لكى أبدى رأى .. ماذا يعنى " أن نزرع وجهها " ؟

- الخبر واضح بكل تفاصيله .. سيدة تم تشويه وجهها بالكامل ، قضاة وقدرًا ، أو ألقى عليه حامض ، نسيه فى اللهجة الدارجة " ماء نار " ، وسأل الأطباء : أنفسهم : ما العمل لإنقاذها ، خاصة أنها لم تعد قادرة على تناول طعامها من خلال فمها ؟

- هل يمكنهم أن يزرعوا لها وجهًا بدلاً ؟

- نعم .. استعاروا وجهًا من سيدة ، ماتت إكلينيكيًا ، بمعنى أنها طبيبًا قد انتهت حياتها ، لكن روحها لم تصعد بعد إلى السماء .. أخذوا هذا الوجه ، وأزالوا وجه السيدة المشوه ، ووضعوا هذا مكان ذاك .. ما هو الشئ الذى لم تفهمه ؟

أعدت طرح سؤالى القديم لدى سماعى حكاية " شد الوجه " .

- هل هذا مباح ؟

ابتسم إلى : سأقول لك ما كان يرد به علماؤنا على كل سؤال من هذا القبيل ، كانوا يرددون : فيها قولان .

أى رأى . ورأى آخر .. علميًا وطبيًا ، لا شك أن هذا إنجاز رائع ، فيما مضى كان يمكن استبدال بعض الأعضاء ، لكننا الآن أمام عملية تغيير كاملة ، إزالة وجه ، وزراعة وجه آخر مكانه .. لا أجد يجادل فى أن الذى حدث عمل رائع طبيًا وعلميًا ، أما هل هو مباح أم غير مباح ؟ وهل هو حلال أم حرام ؟ فذلك أمر لا أحب أن " أفتى " فيه .

قلت : ولا أنا .

- لذلك هناك جدل حوله .

هزئت رأسى ، قائلاً .

- نهاية مفتوحة .. شأنتنا معها شأن العلم .. بابه مفتوح للأبد .. إلى أن تقوم " الساعة " وسؤال آخر ، لا أدرى لمن أتوجه به .

إلى العلماء والأطباء ، أم إلى علماء الدين وفضيلة المفتى :

- هل يأتى على الناس زمان ، يذهب فيه واحد منهم إلى المستشفى ، ليقول للطبيب : " ازرع لى وجهًا جديدًا " ؟

ربما يسأله الطبيب : ما حاجتك إليه ؟

- ضقت به يا دكتور ، وسشت .. حملته عشرات السنين ، وأريد التغيير .
أليس هو أساسى فى حياتنا الراهنة ؟



- وماذا لو أن جسمك لم يتقبله ، وطرده ؟
- لا شيء ، من هذا القبيل ، العلم تغلب على هذه المشكلة ..
- ماذا لو أن الوجه الجديد لم يعجبك ؟
- ربما أعود إليك لتزرع آخر ، أجمل وأكثر وسامة .. لدى من المال ما يمكنني من أن أدفع التكاليف مهما كانت باهظة ..
- والوقت ؟
- لا أعرف كيف أقضيه وكيف أبده ..
- ويهتف الطبيب ، ونحن معه في ذهول :
- يا سيحان الله .

الفهرس

الصفحة	الحكاية
٣	مقدمة
٤	النكتة التي ستصبح علماً
١١	متحف الكتب
١٩	التدأرى بالحكاوى
٢٩	المارد القزوم
٣٤	بنوك الأعضاء الحية
٤٢	إنسان لا يمرض
٥٠	خريطة الجينات
٥٨	المصانع الحديثة
٦٧	التفاحة الماشية
٧٨	الوجه الجديد
٨٧	الفهرس